

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب، لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: 257] وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرته، وأمره ونبيه الصادق في خبره .

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِّنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ .
﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِّنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك .

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ؕ أُولَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ .

ثم وصفهم بأنهم ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ؕ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ .

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به

إليهم. روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجّة عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق. ﴿وَهُوَ أَلْمَزِينُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاخص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يعث إلى قومه خاصة ويعث إلى الناس عامة». وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: 158].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وكما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم أي تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، وهي التسع الآيات ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعلبة ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي في الضراء ﴿شَكُورٍ﴾ أي في السراء. قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر، وإذا أعطي شكر. وفي الصحيح: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِقُونَ آبَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم، ونعمه عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم،

ويتركون إناهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي نعمة منه عليكم في ذلك وأنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ لَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاعراف: 168].

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ لِينِ شُكْرِكُمْ لَا زِيدَنَّكُمْ وَلَٰكِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧).

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبِكُمْ﴾ أي أذنتكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم، وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ﴿لَٰكِن شُكْرُكُمْ لَا زِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿وَلَٰكِن كَفَرْتُمْ﴾ أي كفرتم النعم، وسترتموها وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها. وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٨).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كقوله: ﴿إِنَّ تَكْفُرًا﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ (٩).

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾ عن عبد الله أنه قال فيها: كذب النسابون. وقال عروة: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قيل: أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل، وقيل: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ...﴾ فكأن هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وقيل: معناه عضوا عليها غيظاً، كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَّوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: 119].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ .

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين، أحدهما أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء، ومليكه، والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي في إلهيته، وتفرد به بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَسْتَفْزِرُوا مِنْكُمْ ثُمَّ تُؤْبَأُوا إِلَيْهِ يُنْفَعِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَرَبُّتُ كُلِّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [مرد: 3] فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي فكيف تتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي خارق نقترحه عليكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في جميع أمورهم .

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق، وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنْصِيرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ [الاعراف: 88] وكما قال قوم لوط ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [النمل: 56] وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَنُحِجَّنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَنُحِجَّنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي .

﴿ وَأَسْتَفْتِحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأَسْتَفْتِحُوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها، أو استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32] ويحتمل أن يكون هذا مرآة أو هذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 19] ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ أي تجبر على نفسه ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عندي» .

﴿ مِّن رَّأْيِهِ جَهَنَّمَ وُرُسْفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صٰكِدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ مِّن رَّأْيِهِ جَهَنَّمَ ﴾ وراءه هنا بمعنى أمام كقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ رِوَاهُ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: 79] ﴿ وُرُسْفَىٰ مِنْ مَّاءٍ صٰكِدٍ ﴾ أي في النار، ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد، والتنن، كما قال: ﴿ هٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِۦ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [ص: 57، 58] .

﴿ يَنْجَرُعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَسِيئٍ وَمِنْ رَّأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ يَنْجَرُعُهُ ﴾ أي يتغصمه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمضراق من حديد كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّن حَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحج: 21] ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي يألم جميع بدنه وجوارحه وأعضائه، قال ابن جرير: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي

من أمامه وخلفه، وفي رواية وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وعن ابن عباس قال: أنواع العذاب التي يعذبها الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: 36] وقوله: ﴿وَمِنَ وَّرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله، وأدهى وأمر.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿١٧﴾ .

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدرروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدررون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان: 23] ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٩﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ﴿يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ بِكَيْ﴾ [الاحقاف: 33] ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ .

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿٢٠﴾ أي بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره.

﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحِيصٍ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي برزت الخلائق كلها: برها وفاجرها لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع لقادتهم

وساداتهم وكبرائهم ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعَاءً﴾ أي مهما أمرتمونا اتتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوِنُونَ عَلْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَكُمُ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكُمْ فَأَخْلَفَكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢).

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدرجات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغيباً إلى غيبهم، وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أي على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخيراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾ (النساء: 120) ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، وهذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج، والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم به فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ أي اليوم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتوني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ بسبب ما أشركتمون من قبل، أو إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا هو الراجح، قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مریم: 82) وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي في إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّوْنَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٣).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبداً، لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّوْنَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَتَوْهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (الزمر: 73) وقال تعالى: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: 10).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .
 ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، فذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء. وفي البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها». قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال فما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ .
 ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان. ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أي استوصلت ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر، لا أصل له، ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ .

في البخاري ومسلم وبقية الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وأما الكافر فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليهم شيئاً فهذا معنى ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [النجر: 6] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ [البقرة: 243] ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهلاك، بار بيور بوراً. وقوماً بوراً: هالكين وهم كفار مكة، والمعنى يعم جميع الكفار، فإن

الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها دخل النار.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك. ثم قال مهدياً لهم، ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي مرجعكم ومآلكم إليها كما قال تعالى: ﴿نُعَمِّمُهُمْ فَلِيلاً ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَيْكَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: 24].

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣٢﴾﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات، والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية، وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي ولا يقبل الله من أحد فدية، بأن تباع نفسه، كما قال ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُوَفِّدُكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: 15] وقوله: ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ يقول: ليس هناك مخالفة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط. والخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلاناً، فأنا أخاله مخالّة وخلالاً.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ .

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ

تُذْرِكُ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلُ سَائِبِ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يسر: 40] فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٤١﴾ [لقمان: 29].

﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَثَرٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَثَرٍ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بمالكم وقالكم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أنقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمساوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا» .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٢٥﴾﴾ .

يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة يبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: 67] ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97] وقال في هذه القصة ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ينبغي لكل داعٍ أن يدعو لنفسه، ولوالديه وذريته.

﴿رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم كقول عيسى ﷺ ﴿إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَإِنِّي بِمَا كَفَرْتُمْ فَاعْبُدُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ لَكَنُورٌ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 118] وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله لا تجوز وقوع ذلك، وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﴿رَبِّ إِنِّي أَسْأَلُكَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعُنِي...﴾ وقول عيسى ﷺ ﴿إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَإِنِّي بِمَا كَفَرْتُمْ فَاعْبُدُوا اللَّهَ...﴾ [المائدة: 118] ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمي اللهم أمي اللهم أمي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فاتاه جبريل ﷺ فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمك ولا نسؤوك.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

وهذا يدل على أن هذا الدعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قال ابن عباس: لو قال: أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون: وقوله ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وادٍ غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا مَأْمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [الفصص: 57] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام كله شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل ﷺ .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّمُ وَمَا يُخْفِي عَلَيَّ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّمُ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها. لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ .

ثم حمد إبراهيم ربه عز وجل ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٣﴾ .

يقول تعالى: ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدده عليهم عدداً. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القم: 8] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّابًا﴾ [المارج: 43] وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطفرون لحظة، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة المخافة لما يحل بهم. عياداً بالله العظيم من ذلك. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، أو هي خراب لا تعي شيئاً.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا بَنِيهَا الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ يُجِيبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ نَكُودُونَ أَفْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ ﴿٤٤﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن حال الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِيبٍ يُجِيبُ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعُ الرُّسُلَ﴾ كقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿٩١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمن: 99 - 100] قال تعالى رداً عليهم: ﴿أُولَٰئِكَ نَكُودُونَ أَفْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك. قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٥﴾ .

أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرُ﴾ ﴿٥﴾ [القم: 5].

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ أي شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَيَجْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ [مریم: 90].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِيهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ .

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِيهِ رُسُلَهُ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحد ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكذِبِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 11].

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ .

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة. في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد». وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ قالت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم منفرداً به دون البخاري والترمذي وابن ماجه ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الأبواب.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ .

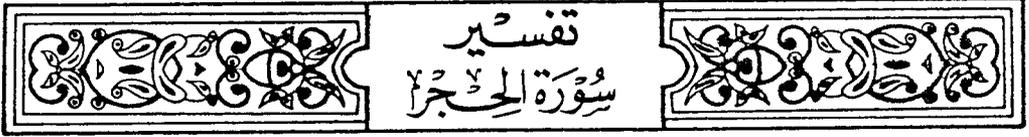
يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مُّقْرَنِينَ﴾ أي بعضهم إلى بعض، قد جمع بين الظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى ﴿أَخْتَبِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْلَجَهُمْ﴾ [الصافات: 22] وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: 7] وقال: ﴿وَإِذَا أَلْقَا مَكَانًا صَنِيفًا مُقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: 13] وقال: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: 27] وقال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: 37، 38] والأصفاد هي القيود.

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنأ به الإبل، أي تطفى، قال قتادة: وهو ألسق شيء بالنار. قال ابن عباس: القطران: هو النحاس المذاب ﴿وَتَغشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كقولهم ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 104] روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونها: الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» انفراداً بإخراجه مسلم.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ .
 ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ [النجم: 31] ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: 1] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّيْسٍ وَجِدَةً﴾ [لقمان: 28] ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين . والله أعلم .

﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ .
 يقول تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ كقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 1] ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي ليتعظوا به ﴿وَلِيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول . والحمد لله رب العالمين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة. ﴿رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين . وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً . وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَرَوْا إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُتُوبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: 27] .

﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا وَيَلْهَمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾﴾ .
 ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَعُوا﴾ تهديد لهم، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾